

ما بعد الاستعمار

استقراء العقل الإمبريالي ودحض مبانيه

■ محمود حيدر

لا يجيء الكلام على "ما بعد الاستعمار" من باب الاستيهام بنهاية الأطروحة الاستعمارية. سواءً تعلق الأمر بالاصطلاح والمفهوم، أم بالاختبارات التاريخية، فإن المناظرة مع هذه الأطروحة، وخصوصاً في زمن الحداثة الفائضة، باتت تتخذ لها منزلةً استثنائيةً. مفهوم "ما بعد الاستعمار" كمثل سواه من المفاهيم الوافدة، يأتينا مكتظاً بالالتباس والغموض. تعريفاته وشروحه وتأويلاته تكثرت تبعاً لطبائع البيئات الثقافية والإيديولوجية حيث ولد وذاع أمره. لذا سيكون على كل منشغلٍ بهذا المصطلح أن يتتبع سلالاته الممتدة عميقاً في التاريخ الحديث، وأن يتعرف إلى أوروبا بما هي أرض نشأته وفكرته وامتداده عبر الاستيلاء والغزو. ثم عليه من بعد ذلك كله أن يتمييز لفظه "ما بعد الاستعمار" بين كونها مفهوماً مضاداً للاستعمار ودعوة كفاحية لتحرر منه، وبين كونها وسيلةً معرفيةً تستعملها السلطة الإيديولوجية الحاكمة في الغرب، لتنتج أنظمة مفاهيم جديدة تمكّنها من إدامة الهيمنة على العالم.

من أجل ذلك وجدنا أن نقارب المفهوم على منحيين متوازيين:

الأول: منحى الجغرافيا الأوروبية حيث مسقط رأس المفهوم وظروف ولادته.

الثاني: منحى الجغرافيات المستباحة، أي من الأرض التي نشأت فيها الفكرة الـ"المابعد

استعمارية"، كأطروحة مقاومة فكرية وكفاحية للهيمنة والتوسع.

مما يجوز بيانه، أن ثمة خلطاً مفهوماً يعود إلى سوء فهم للمصطلح ولطريقة التعامل معه تاريخياً ومعرفياً. فقد بدا لكثيرين في الأوساط الغربية، وكذا في العالمين العربي والإسلامي، أن "ما بعد الاستعمار" مفهوم ينتسب إلى الجيل الاصطلاحي المستحدث الذي شاع صيته في ما عرف بـ "المابعديات". فلقد بدا جلياً أن كل هذه "الما بعديات" ك: "ما بعد الحداثة" - "ما بعد العلمانية" - "ما بعد التاريخ"، أو "نهاية التاريخ"، "ما بعد الميتافيزيقا"، "ما بعد الإيديولوجيا" .. وأخيراً وليس آخراً ما "بعد الإنسان" أو ما سمي بـ "الإنسان الأخير" .. إن هي إلا منحوتاتٌ لفظيةٌ يعاد تدويرها كلما دعت الحاجة. على هذا الأساس أمكن لنا أن نفترض أن السياق "المابعد" هو تدييرٌ احترازيٌ أخذت به المنظومة الحداثية لوقاية نفسها من الخلل والتهافت والاضمحلال. وعليه سنكون هنا بإزاء مهمة تفكيكٍ ومعاينةٍ لمصطلح حديث العهد وينطوي على شيءٍ من الغموض واللبس، قصد جلاء مراميه وبيان غياته.

لا مناص من الإلفات، ابتداءً، إلى أن مفهوم "ما بعد الاستعمار" ليس جديداً في مسرى التاريخ الغربي الحديث. فقد ظهر في سياقٍ تنظيريٍّ بدأت مقدماته مع نقد مسالك الحداثة وعيوبها في منسح القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثم ليتحول من بعد ذلك إلى تيارٍ نقديٍّ عارمٍ بعد الحربين العالميتين في مطلع ومنتصف القرن المنصرم. لذا جاز القول أن النظريات ما بعد الاستعمارية اتصلت اتصالاً نقدياً بعصر التنوير، ثم تمددت إلى الأحقاب التالية عبر مساراتٍ نقديةٍ للعقل الاستعماري بلغت ذروتها مع اختتام الألفية الميلادية الثانية. مع ذلك، لم يكن لهذه الموجة النقدية أن تتخذ بعداً انعطافياً في الثقافة الأوروبية لولا أنها ذهبت إلى المسّ بالعقل المؤسس لتاريخ الغرب وسلوكه. وللبيان، فإن أول ما أخذ على هذا العقل في السياق النقدي، إضافةً على الاكتشافات العلمية تبريراً أخلاقياً ومعنىً حضارياً يؤكد فرادة الغرب واستعلائه على بقية العالم. فازدهار العلم - كما بات معلوماً - لم يكن فقط بسبب فضول العلماء والمفكرين وتوثبهم لاستكشاف عالمه الغامض، وإنما أيضاً وأساساً بسبب التوسع الاستعماري الذي أوجبه وأطلق مساره.

* * *

من هذا المطرح المعرفي بالذات حقاً لنا أن نبني رؤيتنا للتفكير "الما بعد استعماري" على ركيزة

النقد. تقول الفرضية: إن نظريات وتيارات ما بعد الاستعمار ما كانت لتولد لو لم يكن المستهدف منها أصلاً، هو العقل الاستعماري نفسه. من أجل ذلك دأب مفكرون وعلماء اجتماع على تعريف نظرية "ما بعد الاستعمار" بأنها نظرية تهدف إلى تحليل كل ما أنتجته الثقافة الغربية باعتبارها خطاباً مقصدياً يحمل في طياته توجهات استعمارية إزاء المجتمعات الأخرى. كذلك سنجد في الأدبيات الفكرية الغربية اليوم من يرى أن مصطلحي ["الخطاب الاستعماري" و"نظرية ما بعد الاستعمار"] يشكلان معاً حقلاً من التحليل ليس جديداً بحد ذاته، ولكن معالمه النظرية والمنهجية لم تتضح إلا مؤخراً مع تكثيف الاهتمام به، وازدياد الدراسات حوله.

لننظر في ماهية كل منهما:

المصطلح الأول يشير إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب، الأمر الذي يشكل في مجمله خطاباً متداخلاً بالمعنى الذي استعمله الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو لمصطلح "الخطاب".

أما الثاني، أي "النظرية ما بعد الاستعمارية"، فيحيل إلى نوع آخر من التحليل ينطلق من افتراض أن الاستعمار التقليدي قد انتهى، وأن مرحلة من الهيمنة - تسمى أحياناً المرحلة النيو- إمبريالية - قد حلت وأنشأت ظروفًا مختلفة تستدعي تحليلاً من نوع جديد. ولذا، سيظهر لنا أن المصطلحين ناشئان من وجهات نظر متعارضة في ما يتصل بقراءة التاريخ. فبينما يرى بعضهم انتهاء مرحلة الاستعمار التقليدي، وبالتالي، انتهاء الخطاب المتصل به، وضرورة أن يتركز البحث في ملامح المرحلة التالية، وهي مرحلة ما بعد الاستعمار، يرى آخرون أن الخطاب الاستعماري لا يزال قائماً، وأن فرضية "المابعدية" لا مبرر لها".

* * *

لم تخلُ ساحات الغرب من نقدٍ مبيّن للسلطة الاستعمارية. وهذا في تقديرنا يعتبر أساساً مهماً لفهم الأطروحة الما بعد استعمارية وتحريّ مقاصدها. وسوف تصبح العملية النقدية ذات أهمية مضاعفة حين تسلك هذه الأطروحة مسارها التواصلية لتعرب عن علاقةٍ وطيدة بين الثورة النقدية في الغرب الاستعماري، والحركة الفكرية والكفاحية الناشئة في المجتمعات المستعمرة.

استناداً إلى هذا التلازم بين ثورة النقد في المركز الإمبريالي، واليقظة النقدية لنخب الدول المستباحة من المنطقي أن نحصل النتيجة التالية: إن الأطروحة ما بعد الاستعمارية في وجهها الانتقادي هي رؤيةً تشكل من مضادات معرفية متظافرة للاستعمار في الحقول الثقافية والسياسية والسوسيولوجية والتاريخية. وهي إلى ذلك تعتبر في مقدم الأطروحات التي تستكشف عمق العلاقة بين بلدان الشرق والبلدان الاستعمارية في أوروبا. لقد عكف المساهمون على تظهير هذه النظرية عبر كشف ما تختزنه ثقافة وسلوك الحكومات الغربية إزاء الدول والمجتمعات المسيطر عليها. من هذا الفضاء الانتقادي على وجه التعيين، يشكل فكر ما بعد الاستعمار مدرسة تفكيرٍ داخل النظام الاستعماري نفسه، من دون أن يعني ذلك حصر المنتمين إلى هذه المدرسة بالإنجليزيا الأوروبية. فلنخب الشرق ومفكره مساهمات معمّقة في وضع الأسس الفكرية التحررية للخطاب ما بعد الاستعماري.

لقد تولت هذه النخب على الجملة مهمة معرفيةً نقديةً مركبةً: نقد الغازي ونقد التابع ضمن خطبةٍ واحدة. احتل نقد الاستعمار، وكذلك نقد النخب المتماهية معه داخل المجتمعات المستعمرة، مكانةً محوريةً في تفكيرهم. تركّزت المسألة الأساسية التي عالجوها على مشكلة الاغتراب بوصف كونها غربة إنسان تلك المجتمعات عن ذاته الحضارية وهويته الوطنية في سياق تماهيه مع ثقافة الغرب ومعارفه. هذه الحالة المخصوصة من الاغتراب (alienation) ستجد من يصفها بعبارة موفّقة: "اقتلاع الذات بواسطة الذات إياها". وشرحها أن الثقافة الاستعمارية تتحول عن طريق الاغتراب إلى ضربٍ من ولاءٍ نفسيٍّ، موصولٍ باستيطانٍ معرفيٍّ عن سابق إرادةٍ ووعيٍ. فالاغتراب في حالته القصوى هو أشبه بانصبابٍ ووعي المستعمّر في صميمٍ ووعي المستعمّر على النحو الذي يصبح المهيمُنُ عليه غافلاً عن نفسه وعن مصيره وعن المكان الذي هو فيه. وفي هذه الحال يكفّ "المغترب" عن أن يصبح سيد نفسه ويتحول إلى عبدٍ لآلة العمل وخطاب مالكيها. عليه، يصير المثقف المستعمّر كائناً صاغراً تمّ انتزاعه من زمانه الخاص ومكانه الخاص؛ حتى انه ليشعر في أحيان شتى كالغريب بين أهله، ناظراً إليهم ككائناتٍ متخلفةٍ وبربريةٍ. وبحسب فرانز فانون صاحب "معذبو الارض" فإن "المثقف المستعمّر يقذف بنفسه وبنهم إلى الثقافة الغربية كما الأطفال

المتبئين الذين لا يكفون عن البحث عن إطار عائلي جديد. لكن هذا المثقف، وهو يسعى ليجعل من الثقافة الأوروبية ثقافته الخاصة، لا يكتفي بمعرفة رابليه، أو ديدارو، أو شكسبير أو إدغار بو وسواهم، بل سيدفع دماغه إلى الحدود القصوى تواطؤاً مع هؤلاء الرجال.. في حقبة تالية من زمن الحداثة سيحتل رهطٌ من فلاسفة الغرب وعلمائه مساحةً بيّنةً من تفكير النخب العربية والإسلامية إلى الدرجة التي جعل هؤلاء من أولئك، أو ثانياً يستلهمون أفكارهم وأفهامهم، ويتخذونها مسالك ومناهج عن ظهر قلب.

تلقاء النقد النخبوي "العالم ثالثي" للمنظومة الاستعمارية حفلت الميادين الغربية بتيارات نقدية استطاعت الانفلات بهذا القدر أو ذاك من الوظائف الإيديولوجية للسلطة. رؤية هذه التيارات تجاوزت النقد الكلاسيكي لليبرالية ثم للتضاعف وتمدد مع ظهور حركات التحرر الوطني في البلدان المستعمرة بعد الحرب العالمية الأولى. في التنظير النقدي الذي قدمته هذه التيارات، أن سيطرة الإنسان على الإنسان لا تزال تمثل في الواقع الاجتماعي، ما يشي بأن استمراراً تاريخياً، ورابطةً وثقى بين العقل ما قبل التكنولوجي والعقل التكنولوجي. بيد أن المجتمع الذي يضع الخطط ويشرع فعلاً في تحويل الطبيعة عن طريق التكنولوجيا يغير المبادئ الأساسية للسيطرة. فالتبعية الشخصية (تبعية العبد للسيد، والقن لصاحب القصر، والوالي للملك، الخ) يحل محلها - شيئاً فشيئاً - نوعٌ آخرٌ من التبعية: لقد باتت السيطرة الاستعمارية الجديدة تعتمد في أدائها على درجة أكبر من العقلانية، عقلانية مجتمعٍ يدافع عن بنيته الهرمية ويستغل في الوقت نفسه وعلى نحوٍ أنجعٍ باطرادٍ الموارد الطبيعية والفكرية، ويوزع على نطاقٍ متعظيمٍ باستمرارٍ أرباح هذا الاستغلال. وإذا كان الإنسان يجد نفسه مقيداً على نحوٍ متعظيمٍ إلى جهاز الإنتاج، فإن هذه الواقعة تكشف عن حدود العقلانية وعن قوتها المشؤومة: فجهاز الإنتاج يؤبد النضال في سبيل الوجود، ويتجه إلى أن يجعل منه موضوعاً لمزاحمةٍ عالميةٍ شاملةٍ تهدد حياة أولئك الذين يبنون ذلك الجهاز ويستخدمونه.

والعقلانية الاستعمارية التي حدّت وظيفة استعمال العقل بجلب المنافع المحضّة، هي عقلانية مجردة من الأخلاقية. ومثل هذه العقلانية الوظيفية راحت تتمظهر مع تعاقب الزمن كسمةٍ تكوينيِّ

للشخصية الاستعمارية. فلقد بيّنت اختبارات التاريخ أن من أُميز طبائع العقل الاستعماري إضفاء صبغة عقلانية على كل فعالية من فعالياته يقطع النظر عن أثرها الأخلاقي. إن ما ينتج من هذا في آخر المطاف هو أن تتحول العقلانية إلى ذريعةٍ فادحةٍ للاستخدام الإيديولوجي في الفكر الإمبريالي.

لنقرأ الإشكال بشيءٍ من التأنّي:

في الفكر الاستعماري الذرائعي يُنظر إلى كلِّ ممكنٍ وواقعيٍّ بوصفه أمراً عقلانياً. يحصل هذا حتى لو كان مقتضى الوصول إلى الهدف إيذاء الغير وانتهاك حياضه السيادية. في العقلانية الاستعمارية التي ارتكنت إلى العلوم الطبيعية كميّارٍ أوحدٍ لحل مشكلات العالم، تتجرد الذات الإنسانية من كلِّ محتوى أخلاقيٍّ وسياسيٍّ وجماليٍّ. وما ذاك إلا لأن المهمة الجوهرية لهذه العلوم تقتصر في مناهج التفكير الاستعماري على الملاحظة "المحضة" والقياس المحض. ذلك بأن تحديد "طبيعة الأشياء" وطبيعة المجتمع جرى على نحوٍ يبرر "عقلانياً" الاضطهاد والاستغلال. هكذا لم تكن خرافة "الحروب العادلة" التي تحولت إلى مقولةٍ سائدةٍ في العقد الأخير من القرن الماضي، إلا الدليل البين على هذا الضرب من العقلانية المبتورة. لم تدرك الحداثة بسبب من غفلتها وميلها المحموم إلى السيطرة، أن المعرفة الحقّة والعقل الحقّ يقتضيان السيطرة على غلواء الحواس، والتحرر من قهر الغير والسيطرة عليه. المفارقة في "العقلانية" المابعد استعمارية، أنها حين تُقَرُّ بالقيم الإنسانية كسبيلٍ للعدل والسلام العالميين، تعود لتؤكد - وبذريعة العقلانية إياها - أن هذه القيم قابلةٌ لأن تتخذ مكانتها في أسمى منزلة (أخلاقياً وروحياً)، ولكنها لا تُعدُّ حقائق واقعية. تلك معادلةٌ أساسيةٌ من معادلات فلسفة الاستعمار التي بناها العقل البراغماتي للحداثة. تقول هذه المعادلة صراحةً: إذا كانت قيم الخير والجمال والسلام والعدالة غير قابلةٍ للاستنباط من الشروط الأنطولوجية أو العلمية، فلا مجال بالتالي لأن نطالب بتحقيقها. فهذه القيم في نظر العقلانية العلمية ليست إلا مشكلاتٍ تتعلق بالتفضيل الشخصي. ولما كانت هذه الأفكار غير علمية، فإنها لا تستطيع أن تواجه الواقع القائم إلا بمعارضةٍ ضعيفةٍ وواهنة.

نضيف: إن العقلانية المنزوعة الأخلاق - بعدما استبدّ بها جشع الاستيلاء والسيطرة - هي نفسها العقلانية التي دفعت بالعالم المعاصر إلى الانزياح والضلال وعدم اليقين.

مع استهلال الألفية الميلادية الثالثة سوف يظهر لنا كأن اللحظة لم تَحْنُ بعدُ لكي يختلي العقل الغربي بنفسه ويتأمل. المركزية الغربية بصيغها النيوليبرالية لا تنفك تستغرق في غفلتها بسبب من عقلانيتها البتراء. حتى السؤال الذي أنتجته ليعثر لها على طريقة فضلى لسيادة العقل، ما فتئ أن انقلب عليها. صار سؤالاً استجوابياً على ما يقدمه المشهد العالمي من تغييب لأحكام العقل وقوانينه، كأنما انقلبت "عقلانية الحداثة" على نفسها، فاستحالت "طوطماً" للخداع والإيهام، بعدما كانت أنجزت فلسفتها "العظمى" في "تأليه" الإنسان.

* * *

جرى التنظير الفلسفي للعقلانية الاستعلانية مجرى اليقين في غريزة الغرب السياسي. أسس "روحياً" لحملات القوة، وسوّغ لمقولة استعمار الشرق، فجعلها تاريخاً سارياً لا تتوقف أحقابه عند حدّ. زعمت عقلانية التنوير أنها الروح الذي يسري بلا انقطاع في تاريخ البشرية، وأنها البديل للزمان اللاعقلاني الذي استولته جاهلية القرون الوسطى الأوروبية. ولذلك فليس من قبيل التجريد أن يستنتج إيديولوجيو العقلانية الغربية المتأخرة "أنّ فن تكوين الحقائق أهم من امتلاك الحقائق". لقد انبرى هؤلاء إلى استدعاء هذه المقولة ورفعها إلى مستوى متعال. فكان من نتيجة ذلك أن آلت بهم إلى ذروة اللاعقلانية. المتمثلة في الواقع بتسويغ اضطهاد الشعوب كسلوكٍ مقبولٍ ومعقولٍ. لم تعد غاية العقل الامبريالي المستحدث الكشف عن جوانب اللامعقول في الواقع، بل صارت غايته الكبرى البحث عن الصيغة التي يمكن بفضلها تشكيل الواقع طبقاً للمصلحة. كذلك لم تعد الغاية هي التجاوز والتغيير، بل أصبحت هي التبرير عينه. وبدل أن يكون العقل الإنساني موجّهاً للواقع المعاصر أصبح خاضعاً لأغراض الواقع ولوآزمه...".

استناداً إلى هذا التحويل الذي أجراه العقل الاستعماري في البناء العام لقيم الحرية والعدالة والمساواة، شق الفكر النقدي سبيله الاحتجاجي على هذا النوع من الارتداد الكارثي. لقد اتخذت العقلانية هنا صفة جديدة كل الجدة. تحولت إلى ايدولوجية فظة تسوّغ لنفسها كل ما ترسمه من مطامح. عند انتهاء الحرب الباردة (1990) أخذت النيوليبرالية فرصتها لكي "تؤدّج" انتصارها. ولقد تسنّى لها بوساطة شبكة هائلة من "الميديا البصرية والسمعية" - أن تعيد إنتاج هيمنتها ثقافياً واقتصادياً ونمط حياة على نطاق العالم كله، كان على "عقلانية" الليبرالية الجديدة أن تقطع صلتها

بالموروث المفاهيمي لحدائثة التنوير . وها هي تحسم مدعاها بتقريرها أن تداعيات المشهد العالمي "لا تعكس فقط نهاية التوازن الدولي بل نهاية التاريخ بالذات: أي نهاية التطور الإيديولوجي للبشرية كلها، وتعميم الديمقراطية الليبرالية كشكل نهائي للسلطة على البشرية جمعاء . هل بلغت العقلانية بصيغتها الإمبريالية المستحدثة حدَّ "الجنون" حين جعلت العالم أرضاً منزوعة القيم؟ ..

ذلكم هو السؤال الذي طفق يشكل الهمُّ الأقصى لنقاد السلوك الاستعماري . المذاهب النقدية الغربية تنبّهت إلى مثل هذا المنعطف بصورة مبكرة . لذا أجابت في ما يشبه الفانتازيا الفلسفية أنّ اللاعقلانية غالباً ما ترتدي رداء العقل لكي تعيد اكتشاف ذاتها . ربما أدركت براغماتيات السيطرة في الغرب أنها مضطرة إلى الهروب من العقل تحت وطأة المصلحة وغريزة البقاء . لكن سيبدو أنّ لعبة الهرب من العقل إلى الجنون هي عودة إلى العقل بمخيلة أخرى . وهذه السيورة لا بد أن تنتج معرفة على صورتها .. معرفة تسعى إلى ملء الخواء، ولو بإيديولوجيات ثبتت بطلانها ...

* * *

في عالما العربي والمشرقي والإسلامي الراهن يصبح من المهم أن يندرج هذا التفكير التحرري النقدي للاستعمار إلى منظومة معرفية تؤسس للاحياء الحضاري في مواجهة الاقصاء الاستعماري المستأنف . فلكي يتخذ فكر ما بعد الاستعمار مكانته كواحد من مفاتيح المعرفة في العالم العربي والاسلامي، وجب أن تتوفر له بيئات راعية، ونخب مدركة، ومؤسسات ذات آفاق نهضوية، في إطار مشروع حضاري متكامل .

* * *

في هذا العدد من "الاستغراب" سعي إلى متاخمة البنية الاصطلاحية والمفاهيمية والمعرفية للفكر ما بعد الاستعماري . وسيجد القارئ عبر سلسلة من المقالات والأبحاث محاولة لكشف الغموض المحيط بالمفهوم وبيّن معالمه الأساسية بوصفه مذهباً نقدياً للظاهرة الاستعمارية بتلاوينها وضروبها المتعددة .